العنوان:	الواقعية الغرائبية والبحث عن جذور التعاسة: قراءة فى رواية "فتاة الترومبون" للتشيلى سكارميتا
المصدر:	الموقف الأدبي
الناشر:	اتحاد الكتاب العرب
المؤلف الرئيسي:	البيطار، خليل
المجلد/العدد:	مج44, ع533,534
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2015
الشهر:	سبتمبر - اكتوبر
الصفحات:	19 - 24
رقم MD:	736126
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	القصص الأجنبية، الأدباء الغربيون، النقد الأدبي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/736126

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

دراسات..

الواقعية الغرائبية والبحث عن جذور التعاسة

قراءة في رواية (فتاة الترومبون) للتشيلي سكارميتا

خليل البيطار

اجتاز أدباء أميركا اللاتينية جسور معاناة طويلة، وأبحروا بعيداً صوب الجهات جميعها، بحثا عن محار الدهشة وأسرار السرد المتقن، وغاصوا عميقاً في القاع الاجتماعي المفقر والمضطهد، كي يكتشفوا لغة نابضة باللون والإيقاع، ويبتكروا صوراً مشعة عصية على الترويض، وظلوا أوفياء لمحليتهم وتراثهم وحضاراتهم المطموسة، أو لما نجا منها، وانفتحوا علي الجديد وسعوا إليه، وطوروا واقعية سحرية غرائبية مشوقة، وقدموا نتاجاً نافسوا فيه أعلام الرواية في أوربا والعالم، وحصدوا أرفع الجوائز بجدارة.

وأنطونيو سكارميتا أحد أعلام الرواية في القارة، وهو تشيلي من أصول كرواتية، ولد في مدينة أنتوفاغاستا التشيلية عام 1940، ودرس الفلسفة، واهتم بأعمال سارتر وكامو وهايدجر، وغادر مسقط رأسه إلى الأرجنتين، ثم حصل على منحة فولبرايت في الولايات المتحدة لمدة سنتين، وحصل بعدها على منحة الآداب والفنون من ألمانيا الغربية، وكان لهاتين الرحلتين أثر مهم في إغناء تجربته الفكرية والأدبية، وفي صقل أدواته الفنية.

قضى في المنفى ستة عشر عاماً بعد إقالة الجنرال بينوشيه على الرئيس الاشتراكي المنتخب سيلفادور أللليندي، وعاد إلى تشيلي عام 1989، ثم عين عام 2000 سفيراً لتشيلي في ألمانيا.

كتب سكارميتا الرواية والقصة والمقالة السياسية والسيناريو السينمائي، وكان عضواً في حركة العمل الشعبي الموحد (مايو) اليسارية، ولكنه انتقد الدوغمائية والجمود و(الشعارية) الجوفاء بسخريات لاذعة.

نالت أعماله الروائية والقصصية اهتمام النقاد، ومن عناوين رواياته: عارية على السطح- رقصة النصر- أيام قوس قزح- الصبر المتحرق- فتاة الترومبون.

ومن عناوين مجموعاته القصصية: الحماسة- واحداً تلو الآخر- ركلة حرة.

ترجمت أعماله إلى لغات عديدة، ونال عنها أرفع الجوائز، من بينها: وسام الفارس من فرنسا، وجائزة نوبل الآداب من السويد عام 1996.

رواية (فتاة الترومبون) أشهر رواياته، أنجزها عام 1970، وترجمها إلى العربية صالح علماني، وصدرت عن دار المدى بدمشق عام 1997، وتتحدث عن أحفاد الرحالة والمحاربين ضد النازية من مدينة أنتوفاغاستا، والنازحين إليها من جحيم المجازر وراء البحار.

يروي سكارميتا بحرفية جد وتمرد طفلة حكاية مدينته أنتوفاغاستا في عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، ويسرد حكايات التشيليين في ضواحي العاصمة سانتياغو المحاصرين بالتهميش والأعمال المضنية، والموزعين بين حلم العدالة في الوطن، وبين الحلم الأميركي والرحيل إلى مدن المال النجومية في الولايات المتحدة.

الطفلة مجدلينا الشقراء المولودة في أوربا، قتل أبوها وهو يواجه النازيين، وتوفيت أمها، وحملها قس في سلة وعمرها سنتان، وسلمها إلى جدها ستيبان كابيتا، المحاصر بالمآسي منذ نزوح أسرته ذات الأصول الكرواتية إلى سواحل القارة اللاتينية، إذ ظلت تحن إلى جذورها، ولكنه تجذر معها في الأرض الجديدة وصار محور الاهتمام في المدينة.

الحفيدة مجدلينا وعت الذكريات الحلوة والمرة منذ أدخلت المدرسة الإنكليزية، وروت سيرة طفولتها ومراهقتها، وتذكرت ما حفظته من حكايات جدها، وما احتفظت به من أشيائه وهداياه، راصدة تحولاتها في هذه المرحلة الصاخبة، وتحولات مدينتها ووطنها تشيلي، والأحلام المنكسرة والصراعات القارية والدولية التي لم ترحم بلدها، ولم ترحم كل الدول الهشة حديثة الاستقلال.

الجد ستيبان عانى من إصابة في الرئتين، لكنه قاوم المرض ورعى الطفلة، ووجد فيها استمراراً لدماء أسرة كابيتا، فأوقف التدخين والكحول، وظل يردد دائماً. (الناس الذين لديهم مبرر للعيش لا يموتون)ص 14. استفزته رسالة القس التي وجدها في السلة يوم استلم الطفلة: أقنع نفسك أنك صاحب الشأن أيها الجبان، وهو لا يذكر أنه جبن إلا مرة واحدة، حين توجه مع أخيه مهاجرين إلى الولايات المتحدة بطريقة غير شرعية، وكان عليهما أن يغادرا القارب ويسبحا إلى الشاطئ، فقفز أخوه وعدل هو في اللحظة الأخيرة وعاد إلى موطنه، وانقطعت أخبار الأخ، وقيل إنه غرق.

سردت مجدلينا ما وعته من أحداث، ومن خبرات الجد والمعلمين وزملاء اللعب أمام دار السينما في ساحة البرازيل، إذ يعيد الأطفال تمثيل ما حفظوه من مواقف وأحداث في الأفلام، ويقلدون الشخصيات المحبوبة، ويحلمون بأن يصبحوا مشهورين، ويذهبوا إلى هوليوود، لأن البوصلات كلها تشير إلى الولايات المتحدة ص 46.

مجدلينا التي غدا اسمها آليا إيمار على اسم جدتها، منذ عمدها تجمع أطفال ساحة البرازيل للرقص والتمثيل بهذا الاسم، (وكان كل طفل يختار اسماً مستعاراً له ويحتاج إلى موافقة الأطفال عليه) واجهت فراق الجد وضغوط عمتها العانس ووصايتها عليها، واضطرت إلى مساومتها لتقاسم غرفتي المنزل، وواجهت تحرشات الصبيان وتنافسهم على كسب قلبها، ونافسات صديقتها إسبينوزا ذات الجسد المثير، كما واجهت تحرشات آريناس مدرس اللغة الفرنسية التي كرهتها،

وتحرشات عامل محطة الوقود الذي علمها قيادة الدراجة النارية التي ورثتها عن جدها، وعلمها قيادة السيارة التي أهديت إليها من صديق الجد عند قومه للتعزية ورد الجميل لصديق عمره.

تعلقت آليا إيمار ببالاثيوس الفتى الحالم المتمرد المخلص لها، وأفادت من سيارتها الجذابة بتأجيرها لسياح وعاشقين، مقابل مدخرات أمنت لها ولصديقها نفقات الهجرة إلى هوليوود، وبدأت تفهم طبيعة الصراع الدائر في تشيلي، وعرفت مكانة جدها وأسرة كابيتا من أصدقاء الجد: الصديق الذي أهداها السيارة، والصحفي روكي بافلوفيتش المتابع لما يدور من صراعات، ومناصر الرئيس اليميني أليساندري، لأن الصحيفة التي يعمل فيها تغازل اليمين، وقد كتب مقالة عن ستيبان وأرسل نسخة عنها إلى الحفيدة، وقال فيها: إن معاناة حسرة الحب مضافاً إليها التعلق بأمل واهم، يسرع الشيخوخة أكثر من إدمان الشراب، وستيبان محترف في هاتين الرياضيتين. ص 124

التوتر الدرامي والصراع يتواصلان عبر صفحات الرواية بأشكال متعددة: مواجهة ضغوط الحاضر وإرث الماضي الخبيء والمعلن، والخيارات المستقبلية المتعثرة بشأن الدراسة والحب والسفر، والصراعات المتصلة بتطور بلد متخلف مفقر، تتجاور فيه قلة مترفة مع أكثرية بائسة، والد بالاثيوس عامل طباعة مناصر لليسار، لكنه يعمل في مؤسسة تساند اليمين، وتحمل بؤسه وحرج موقفه بصمت، ولا يشارك في الاحتجاجات العمالية خشية تسريحه، وسخر بافلوفيتش من هذه المواقف المتناقضة، وقال: لا تنقصني حاسة الشم لأدرك أين يطبخ التاريخ ص 140. وسخر من كثرة الإعلانات في بلد ليس فيه فائض من أي شيء، وبرر تأييده لمرشح اليمين وهو عارف بفضائح الشركات الأجنبية وفساد الحكومة وإداراتها في مناظرة مع أللليندي مرشح اليسار الذي خسر مرات بفارق ضئيل مزيف من الأصوات، وقال: قدري أن أعيش في بلد صغير، أطاحوا فيه بعسكري أول الأمر، ثم اختاروه بعدها ديمقراطياً، كي يعودوا إلى التخلص منه بهذه الانتخابات. ص 137

الصبية آليا إيمار المشتهاة والمستقلة في خياراتها واكتشافاتها لتحولات جسدها الجميل، أصغت إلى الآراء المتباينة: المحبطة أو الحالمة، والمستاءة أو العميقة، حبيبها بالاثيوس قال لها في رسالته: العالم جائر وجميل، وغابرييلا ميسترال الشاعرة التشيلية المعروفة كتبت: يا يسوع أطبق جفني/ وضع ثلجاً على فمي/ فالساعات كلها دارت فائضة عن الحاجة/ والكلمات كلها قد قيلت. والسيد سينيوريت عاتب حبيبها حين عرف نيته الهجرة، وقال: ليس عدلاً أن يكون كل شيء أعوج بهذا الشكل، ولكن مفتاح السر موجود هنا في هذه الجبال الجرداء. ص 146.

وعازف الترومبون باتشوكو ياكسيك الذي أوصل الطفلة مجدلينا إلى جدها متأرجحة على آلته، عاد ثانية إلى تشيلي ليجدها صبية جميلة، وأحيا حفلة جاز وقدم للصبية بطاقتي دعوة، وموسيقاه والأغنيات الإسبانية والإنكليزية التي حفظته الصبية صقلت شخصيتها وأغنت تجربتها، فالحياة تؤرجح الناس على أكثر من تجربة قبل أن تضعهم على السكة.

حين أغرمت مجدلينا (آليا إيمار) بالاثيوس، وانجذب إليها اكتشفت قدرتها إطلاق طاقاته الكامنة، قالت: كان فيه شيء رقيق جداً وهائل الشبق في الوقت نفسه، بدا كما لو أن يأس هذه الجدران قد صاغه من قوة مكبوحة، وراودني خاطر مجنون بأنني القادرة على إطلاق العنان لتلك القوة. ص 181.

وصف سكارميتا على لسان الصبية اللقاء الحميمي الأول بين العاشقين آلي وبالاثيوس في سيارتها، وكانت خبرته بين استئجار غرفة فندق أو النوم في السيارة، وقالت: كان بالاثيوس وحشاً حبيساً، وبكلماته وحدها ينال الحرية، لا حاجة لأن تكون تلك الكلمات لشكسبير أو نيرودا، يكفي أن يقول شيئاً حتى يمزق رداء الروتين الرمادي، وتدخل شهاب الشمس من كل الأنحاء، وإن كانت الحروف تشكل في آخر المطاف كلمات تخلو من أي فخامة، (مجرد نحن اللذين في هذا). ص 202.

تحدثت آليا عن مشاعرها بعد اللقاء، ثم مضت مع حبيبها بالاثيوس بالسيارة صوب البحر، وقالت: للمرة الأولى في حياتي انصهر الزمن لي في برهة واحدة، غمامة ضباب من الماضي متحللة في دفقة شمس، المستقبل يمكنه أن ينتظر، ربما لأنه متضمن في هذا الحاضر الذي يمتد على طول الطريق العام ص 203.

وتكررت لقاءات الشابين وكان لهما لقاء حميمي أجمل في بيت الشاعر التشيلي المحبوب نيرودا، وعبر بالاثيوس عن فرحه وخشيته من فقدان هذا النعيم بتساؤل مشوب بالحزن: ألي إيمار أتظنين أن هذا سيدوم؟ فأجابت بثقة: سيدوم إلى أن ينتهي. ص 224.

اتجه بالاثيوس صوب معهد المسرح، ودخلت آليا الجامعة، وظل حلم الشاب بالسفر إلى الولايات المتحدة قائما، وحدثت تطورات صغيرة ودرامية كثيرة: إسبينوسا صديقة آليا حملت من صديقتها الذي هجرها، وهي تنوي أن تسقط الجنين، وجوفانا الوصية عليها أغرمت بالاشتراكي سبوليبيدا الناشط في حملة أللليندي مرشح اليسار، وقدم أليساندري مرشح اليمين وعوداً براقة مزجها بالتهديد، بينما عرض أللليندي كشتباناً صغيراً من الآمال: عرض شيئاً قريباً من الناس لكنهم لا يستطيعون رؤيته، عرض كنز جرة حكاياتنا العربية، الزيت الذي يضيء مصباح علاء الدين، المن الساقط من السماء على الأنهار الميتة، وإحصاءات رقمية بشأن إصلاح الغذاء والتعليم والصحة. ص 276.

وعالج د. أللليندي مرضاه في تلال بالبارايسو، وكانت آليا إلى جانبه، ورأت كيف رد المرضى الجميل لطبيبهم المرشح عبر إغراقه بأصواتهم.

وتلقى بالاثيوس رسالة من صديقه سينيوريت يبلغه فيها قبوله في معهد المسرح الأميركي، وأبلغ أليا التي حملت منه ولم تبلغه بذلك، ولم تعترض على سفره وحيداً، وليلة موعد الرحلة ألغى سفره وظل إلى جانب حبيبته، ونشطا لصالح حملة أللليندي، الذي فاز أخيراً بالرئاسة بعد ثلاث هزائم.

مزج سكارميتا السيرة الغرائبية بتحليل إيقاع الأحداث والحراك الاجتماعي في بلد نهبته الاحتكارات وشطرته الصراعات، فهنا جماهير واسعة مفقرة ومقموعة، وهناك نخب يمينية كومبرادورية بوليسية حاكمة، تزيف الانتخابات وتستأثر بالثروات، وتهدد بحرب أهلية إذا تضررت مصالحها وسلطتها، ورسم ببراعة شخصيات غريبة الأطوار لكنها واقعية وواثقة، وسخر بمرارة ودقة من نظام التعليم التلقيني ومن التبعية الذليلة، وانتقد آليات العمل السياسي الجامدة وتقاليد الولاء الأعمى للأشخاص، وحذر من بؤس ثقافة الجيل الشاب المركزة على الأفلام والأغنيات الأجنبية، بينما تشكل المدرسة المحلية ممر عبور نحو الأفق البعيد في أميركا وأوربا.

وشغف سكارميتا بوصف الطبيعة من جهة، وبتحليل عالم الشخصيات الداخلي من جهة أخرى، وبرز ذلك في تحليلات آليا إيمار الفضولية، والتقاطها لإيماءات الأشخاص وحواراتهم، وفي الحوارات الكثيرة بين الشخصيات المرسومة بعناية فائقة، واستخدم الدعابة في انتقاده لتوظيفات الشهرة: فالملاكم التشيلي ذو القبضة القوية معجب بأللينـدي ولا شأن له بأفكاره، ويسانده في الانتخابات، ويتناقل الناس طرفة تقول: الملاكم يربح مباريته كلها، ومرشحه في الانتخابات يخسر دائماً.

وأظهر أسلوب سكارميتا نسيجاً منمنماً تتزاحم فيه الصور، ويسلس له السرد المشوق، وتتعانق فيه حضارات قديمة ومعاصرة: مثال ذلك تصويره لميناء بالبارايسو بثقله الضاغط: كان ملح البارود يحشو رئاتنا، وكنا اسطوانتي ضوء مترعتين يمكن لنا أن ننفجر في لحظة لعجزنا عن مرامة مزيد من الطاقة (أليا وحبيبها)، كان لدينا هذا بالطبع، ولكن (هذا) المدينة كان يهز (هذا الخاص بنا) كذلك بحنانه الفظ، كما لو أن لدى بالبارايسو تفهم خاص للعشاق. ص 222.

وهذه صورة طريفة للرقم سبعة، العلامة التي تطمح آليا لنيلها في اللغة الفرنسية، هذا الرقم النحيل ذو القبعة في أعلاه، والخنجر المغروس في كبده، وهي صورة تشير إلى السيد المسيح أثناء صلبه. ص 219.

وهناك سخريات كثيرة من ضيق الأفق والنفاق والانخلاع عن الجذور مبثوثة في ثنايا الرواية: منها رسالة الصحفي اليميني بافلوفيتش إلى الرئيس أليساندري، فقد عينه محافظاً لمدينة أنتوفاغاستا لمكافأته على مناصرته ولشراء قلمه، فاعتذر الصحفي عن عدم قبول المنصب.

نقلتنا الرواية من تداعيات المرحلة النازية المظلمة وكوارثها وفوضاها إلى عقد الستينيات المضطرب، حيث الإفقار المنهجي والبؤس المعمم والخيارات الصعبة، بين خلاص فردي يقامر فيه الفرد بكل شيء: خسارة هويته وكرامته وأحبته، وبي كفاح جماعي طويل موجع ومحاصر بالخيبات.

قدم سكارميتا شخصيات تنتمي إلى شجرة واحدة هي شجرة الإنسانية المكافحة ضد الظلم: الجد ستيبان الذي حفظ تراث العائلة ومقاومتها للنازية، والحفيدة آليا المشكوك بنسبها والتي عاشت في كنفه، وتخرجت من مدرسته مستقلة فكرياً وشعورياً، وأبية ومستعدة لتحمل نتائج تصرفاتها دون هلع أو ندم، وقدم رؤيته لأهمية دور المسرح في إيقاظ الوعي الاجتماعي من خلال متابعة تمثيل الأطفال في ساحة البرازيل، ومن خلال شخصية بالاثيوس العاشقة للمسرح، وثمن الروائي دور الموسيقى في تهذيب النفوس وترقيق المشاعر، واختار شخصيات قلقة تسير على حافة المخاطر، لكنها تواصل السير مستعينة بعصا توازن غير مرئية، فآليا إيمار (مجدلينا) عشقت المسرح الذي يحبه بالاثيوس، وحفظت تراث الجد ومقتنياته الطريفة، وشقت طريقها دون وصاية أو إملاء من أحد، ووقفت قرب عتبة الأحداث والتغيرات الكبيرة تحاول فهمها وتحدد موقعها منها، فوجدت نفسها قريبة من الطبيب سلفادور (ومعنى الاسم بالإسبانية المخلص) المرشح القريب من الناس، الذي يخاطبهم بلغتهم، ويصارحهم دون تلاعب بعواطفهم، وقد توقفت الرواية عند لحظة نجاح اليسار ديمقراطياً في انتخابات الرئاسة، ووصول أللليندي إلى القصر، لكن نذر المآسي اللاحقة باتت معروفة للكبار والصغار في تشيلي وفي العالم، إذ انقلبت الديكتاتورية الدموية على الحكومة المنتخبة، وأدخلت البلاد في نفق مظلم.

سكارميتا الفيلسوف والحكواتي، والتروبادور والسارد المبدع، أضافت دعاباته وسخرياته المرة إلى الواقعية السحرية عبقاً وسلاسة وتشويقاً وبعداً إنسانياً، واحتلت أعماله الصدارة في القارة اللاتينية وخارجها، وبررت الجوائز التي نالها.